اسم الدرس : تفسير سورة العاديات

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

## اسم السورة وتنوع سياقها

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم، بإذن الله سندرس اليوم سورة من سورُ جزء عمَّ، وهي سورة **العاديات**، بعض التفاسير تكتبها سورة **والعاديات**، سواء بإثبات الواو أو بحذفها.

يحفظ كثيرٌ من الأطفال سورة العاديات لكنَّ بها بعض الألفاظ التي يشعر كثيرٌ من الناس بصعوبة سواء في نطقها أو فهم معانيها، وإن كانت هذه السورة العظيمة تحتوي على معانٍ عظيمة جدًا أُفرِدَتْ بالتصنيف، وحتى كثيرٌ من المفسرين ممن لم يُفردوا لها تفسيراً وتكلموا عنها بشكل عام أَفردوا في الكلام عنها؛ **فالسورة يمكن تناولها من أكثر من مجال سواء من جهة تحليل ألفاظها أو موضوعها أو حتى نهايات ونَسَق آياتها.**

فعندما نقرأ في هذه السورة قول الله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} [العاديات:١-٥] نجد هنا ورود خمسُ آيات متتاليات معطوفة كلها بالفاء على بعضها البعض، ونهاية كل آية منها على صيغة **فَعْلا** مثل: ضبحًا، وقدحًا، فهذه خمس آيات متتاليات تشعر بسرعة أثناء قراءتك لها وكأنك لا تستطيع أخذ أنفاسك...بعدها يبدأ سياق الآيات ووقعها يتغير:

ففي قوله: {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:٦-٨] تجد مد وإطالة في الصوت، يمتد وكأن المعنى قد تغير، بل وكأن واقع الآيات نفسه تغير، وكأن الخمس آيات الأُول تصف واقعاً مختلفاً تماماً عمّا بعدها.

ثم بعدها تأتي صيغة التعنيف والتهديد والذم في قوله: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ} [العاديات: ٩-١١]

ألفاظ السورة شديدة المعنى مثل: التراب، والنقع، والبعثرة، **والتحصيل**: وهو إخراج ما في الصدور بقوة، كإخراج البذرة من قشرتها بقوة، وسوف نتناول هذه المعاني لاحقاً. إذاً فهذه سورة تحتوي على معانٍ عديدة.

## سورة العاديات مكية أم مدنية؟

بادئ ذي بدءٍ، اختلف المفسرون هل السورة مكية أم مدنية؟

غالب المفسرين على أن **السورة مكية**، وذلك لقصر الآيات، ووقعها السريع، وذم الإنسان بها على وجه العموم {إن الإنسان لفي خسر}[العصر: ٢] ، و{إن الإنسان خلق هلوعًا}[المعارج: ١٩]، فذم الإنسان على وجه العموم غالباً – وليس دائماً– ما يأتي في السور المكية، لأن تلك صفات في كل إنسان.

قليل من المفسرين قالوا إن هذه السورة مدنية، ورجح ذلك الإمام ابن عاشور –وهو من المتأخرين في تفسير التحرير والتنوير– رجحه على سبب النزول وإن كان سنده ضعيف لكنه تقوّى بشواهد تاريخية معينة وهي:

١. أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بسرية للجهاد في سبيل الله، فلما تأخرت اغتمّ لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآيات لتبشره بانتصار المسلمين وبأنهم أدّوا ما عليهم وجاهدوا في سبيل الله.

٢. في قوله: {وَالْعَادِيَاتِ} أي يقسم الله بالخيل التي تجاهد في سبيل الله، ولم يكن في مكة خيل تجاهد في سبيل الله آنذاك، فرجّح أن السورة مدنية لأنها تتكلم عن الخيل التي تجاهد في سبيل الله والتي لم تكن إلا في المدينة. فرجح أنها مدنية

لكن كما قلنا: فإن غالب المفسرين على أن السورة مكية.

## نبدأ في تفسير الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} [العاديات:١-٣]

بعض سور القرآن لها بدايات مختلفة؛ فمثلا هناك سورة تبدأ **بإثارة الذهن في التساؤل**، مثل السور التي تبدأ بحروف مقطعة، فحين يسمع الإنسان حروف مثل: ألم، وحم، وعسق؛ يبدأ ذهنه في التفكير في معاني هذه الحروف، وعلاقتها ببعضها وبالآيات، فهناك سور تثير الذهن عن طريق الحروف المقطعة.

وهناك سور تبدأ مباشرةً بدون مقدمات مثل هذه السورة، فبدأت بخيل تجاهد وتعدو في سبيل الله، ومثل سورة محمد صلى الله عليه وسلم بدأت بقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:١] فعندما تقرأ هذه الآية تظن أنها في منتصف سورة؛ وأنها سورة بدأت بحروف مقطّعة، ثم تلاها الكلام عن رحمة الله، ثم عن أناس يصدون عن سبيل الله، وانتهاء هذه الآيات إلى وجوب مقاتلة هؤلاء، لكن تُفاجأ أن هذه السورة لم تبدأ هكذا، فسورة محمد صلى الله عليه وسلم والتي هي سورة القتال بدأت بالدخول في الموضوع مباشرة بقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ} [محمد:١-٢]

وهنا أريدك أن تتخيل معي ... من لطائف تسمية لفظ "**سورة**"؛ قال بعض أهل العلم عن سبب ذلك:

أن كل مجموعة آيات ترتبط مع بعضها البعض في وحدة معينة أطلق عليها الشرع لفظ "سورة"، فترتيب الآيات بهذا الوضع توقيفي، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بترتيبها هكذا وبأن تكون وحدة واحدة يُفصل بينها وبين كل سورة بالبسملة.

## سور السورة

في اللفظ تشبيه وكأن هذه المجموعة من الآيات أحيطت بسور، كحديقة غنّاء مليئة بالثمار والأزهار والفاكهة والثمار المستطابة، إذا أردت أن تشاهد ما فيها فعليك أن تتسور –أي تصعد– هذا السور، فطالما أنك بعيد عن السورة فلن تستطيع أن تبصر ما فيها من جمال، إلا أن تدخل وتمشي وتتعمق داخل الحديقة حتى ترى ما فيها من جمال، وكذلك السورة.

فتخيل معي ونحن نستفتح هذه السورة، نفتح باب السور ونحاول الدخول، تُفاجأ أول ما تفتح السورة أنها تبدأ بمشهد صوتي {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}.

وكما ذكرنا من قبل؛ أحيانا يختلف المفسرون في تفسير الأقسام –جمع قَسم–، عندما يذكر الله جل وعلا الصفة ولا يذكر الموصوف، فهنا ذكر الله جل وعلا صفة العَدْو –أي الجري– لكنه لم يخبرنا ما هو الشيء الذي يجري؟ لذلك اختلفوا هل المراد من القسم هنا الإبل في الحج؟ أم الخيل في الجهاد؟ وإن كان غالب المفسرين على أنها الخيل في الجهاد.

فأقسم الله جل وعلا بخيل تجري؛ وخصّ صوتها فقال: {وَالْعَادِيَاتِ **ضَبْحًا**}، وهو ذلك الصوت الذي يصدر من الخيل أثناء الجري، وسنتكلم عن هذا المعنى تفصيلاً؛ لماذا خص الله الضبح تحديداً، لكن أريدك أن تتخيل معي؛ أنك تفتح السورة الآن

وتقول بسم الله الرحمن الرحيم، فتُفاجأ بصوت خيل تجري، لا تدري ما الذي يحدث؟ ولا إلى أين تجري الخيل؟ ولا زال المشهد صوتياً ولم يتحول إلى مشهد ضوئي.

وهذا الأسلوب يغلب استخدامه في الإثارة، فتجد في مقاطع الفيديو أو الأفلام عندما تبدأ بمشهد مظلم يصدر من داخله صوت يستثيرك، فتسمع أصواتاً معينة –وإن كانت غير مفهومة – وتبدأ في التركيز في تلك الأصوات المصاحبة لهذه الصورة المظلمة، وتميز منها أصواتاً؛ كأصوات حيوانات أو مؤثرات صوتية معينة تجعل المشهد أكثر إثارة.

فتخيل معي الآن؛ صورة مظلمة، وأصوات تظهر، وصوت خيل تجري.

ثم يبدأ نور طفيف يظهر في الصورة؛ في قوله: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، **الموريات**: هي خيلٌ تقدح النَّار باحتكاك حوافرها بالحجارة أثناء القتال –سنتكلم عن هذا أيضاً بالتفصيل– لكن الشاهد أنه ليس ضوءً أضاء الصورة، وإنما هو فقط شرارة تظهر.

ما زلت تتخيل معي ذلك المشهد؛ ظلام وفجأة تسمع صوت خيل تجري، لا تدري أين تذهب ولا ما الذي يحدث، وفي انتظارك تلك الصورة لتضيء فوجئت بشرارة صغيرة تظهر في الظلام، شرارات كثيرة تظهر وتنطفئ تباعاً من كل مكان، امتلأ المكان كله بها، ورغم قوة هذه الشرارة؛ استمرت الخيل ولم تتوقف عن الجري.

ثم تُفاجأ في الآية الثالثة في قوله: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} وقد بدأت الشمس تشرق لتذهب بظلام هذه الصورة، وحينها ترى الخيل فتكتشف أنها ذاهبة تُغير، وتجاهد في سبيل الله.

ثم يعود المشهد مرة أخرى بصورة أقل وضوحاً لكنها ليست ظلاماً، فهناك ضباب بسبب الغبار الذي نتج عن جري تلك الخيول، تجد هذا في قوله: {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}[العاديات:٤]، بعدما اشتد الغبار فلم تَعُد ترى ما يحدث بالداخل {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}}[العاديات:٥] وسنرى عندئذ ما سيحدث.

إذًا بين أيدينا سورة مليئة بالإثارة كحال المعارك والحروب، وكأن السورة تأخذك لتعيش هذا المشهد، وهذا من إعجاز القرآن الكريم؛ أن تحمل هذه الكلمات البسيطة معاني ضخمة، معاني صوتية، وضوئية، ومرئية وكأن الإنسان يعيش هذه المشاهد. **وهذا هو كلام الله المعجز الذي لا يستطيعه بشر.**

يقسم الله جل وعلا في بداية السورة **بالعاديات**؛ وهي جمع يقصد به جماعة من الخيل تعدو وتجري، وكما سنرى فهذا الجري للجهاد في سبيل الله.

(ضبحًا) الضبح: هو صوت الخيل الذي يظهر عند الجري، ورُوي عن ابن عباس: أن هذا الصوت لا يصدر إلا من الخيل والثعالب وبعض الحيوانات التي تجري بسرعة كبيرة، وقيل إن أصل صوت الخيل –سواء الصهيل أو الحمحمة– يكون عند الوقوف أو السير ببطء، لكن عندما تجري الخيل بسرعة رهيبة جدًا تحتاج لأن تُغيِّر في مجرى النفس، لماذا؟ أنت على سبيل المثال: تأخذ نَفَسك بطريقة عادية جدًا وأنت جالس، ولكن عندما تجري فسيُوقِفك نَفَسك ما لم تأخذ النفس بمعدل أسرع كي لا تتوقف لتلتقط أنفاسك، أي أنك تُجري تغيرات في جسمك حتى لا تتوقف ... وكذلك الخيل يحدث عندها تغيير في مجرى التنفُّس بطريقة معينة فيدخل الهواء ويخرج بسرعة، حتى إن "ابن عباس" في رواية عنه –ذكرها القرطبي وغيره– فسّر معنى "ضبحًا" فقال: "**هحْ هحْ**". هذا الصوت يظهر منها أثناء الجري السريع فكأن الخيل لا تريد أن تتوقف حتى لتلتقط أنفاسها.

انظر إلى همة وسرعة الخيل فما بالك بمن يجلس عليها! فالقسم بالخيل هنا المقصود منه الفارس الذي يركب هذه الخيل، فالخيل لا تجري بمفردها ولكن يقودها فارس تجاهد معه في سبيل الله.

فبدأت السورة بمشهد صوتي وهو مشهد الخيل المسرعة، تعدو ولا تريد أن تتوقف ولو لالتقاط أنفاسها، وكما ذكرنا أن هذا الصوت لا يكون إلا عند شدة وسرعة الجري، فأقسم الله جل وعلا بالخيل التي تنطلق وتجري مسرعة ويظهر منها هذا الصوت وهو "الضبح" بسبب شدة العَدْو.

قسم الله جل وعلا بها دليل على أن لها شأن عظيم.

تلك الخيل التي انطلقت تجاهد في سبيل الله لها أمر عظيم، وبالتالي هذا ينطبق على كل عدة ووسيلة تُستعمل لنصرة دين الله عز وجل وللجهاد في سبيل الله.

فكلما استطاع الإنسان أن يُسخّر أدواته لنصرة دين الله جل وعلا ارتفعت قيمة تلك الأدوات ونالت مرتبة الشرف بنصرة الدين.

سواء كان لديك سيارة، أو أي شيء تسخره لنصرة هذا الدين فإنه ينال الشرف ويصبح أمراً ذو مكانة عظيمة عند الله جل وعلا وسنتكلم في مسألة تسخير الدنيا لنصرة الدين، فالناس تسأل: "هل لأنني أملك نصيباً من الدنيا وبعض من الممتلكات آثم بها؟ أم أُثاب؟ أم أن هناك شروطاً معينة؟".

سنتكلم كيف قسّم النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا أو الخيل هنا تحديدًا إلى **ثلاثة أنواع**، فالقَسَم هنا ليس بالخيل؛ فلم يقل الله "والخيل"، وإنما أقسم بالخيل **التي تعدو وتجاهد في سبيله**، فمجرد وجود الشيء في حد ذاته ليس دليلاً على علو شأنه، لا، ولكن الشأن فيم يُستخدم؟ وكما قال كثير من المفسرين، فإن تلك الخيل الجميلة هي نفسها التي قطع سيدنا سليمان عليه السلام أرجلها وأعناقها في سورة **ص** عندما تشاغل بها عن ذكر الله سبحانه وتعالى حتى توارت بالحجاب، يقول تعالى: {ردوها علي فطفق مسحًا بالسوق والأعناق} [سورة ص: ٣٣].

إذًا الخيل ليست مكرمة أو مشرفة لذاتها ولكن بحسب استعمالها، والإنسان ينال الأجر أو ينال الوزر بحسب استعماله لها.

فأقسم الله عز وجل بالخيل التي تجري فقال: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}[العاديات:١:٣] (**الفاء**): هنا تفيد السرعة بمعنى أنه لم يتوقف، وهذا مهم جدًا بالنسبة للإنسان، فالمسلم الطائع لا بد أن ينتقل من طاعة إلى طاعة.

يقول تعالى: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا} [الأنبياء ٩٠]، انظر في تعبير الآية، فلم يقل "إلى الخيرات" ولكن قال {في الخيرات} وكأن الخيرات محيطة به، فهو لا يزال يصلي وما إن يفرغ من الصلاة حتى ينطلق ليزور مريضاً، ثم يعد نفسه عند المريض لأمر آخر ... وهكذا، فهو من خير إلى خير لا يخرج من الخيرات؛ فهو أصلاً لا ينفك عن الخيرات حتى يسارع إليها بل هو في حال دائم من الخيرات التي تشغل كل أوقاته.

كذلك هنا في الآيات: "والعاديات – فالموريات – فالمغيرات – فأثرن – فوسطن" فمن عوامل الثبات استمرار وتوالي الطاعة بعد الأخرى، قال النبي صلى الله عليه وسلم (صلاة في إثر صلاة كتاب في عليين) [١] ، أي أنه ينبغي أن يمارس الإنسان الطاعة بعد الطاعة حتى لا يفتر أو يتوقف، وقد تكلمنا عن هذا المعنى مسبقاً في سورة الشرح في تفسير قوله: {فإذا فرغت فانصب} [سورة الشرح: ٧].وكيف أن فترات الفراغ لا ينبغي أن تطو ل على المسلم العامل لدين الله جل وعلا.

١ عن أبي أمامة الباهلي :صَلاةٌ في دُبُرِ صَلاةٍ -قال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ: قال أبي: وقال غيرُه :في إثرِ صَلاةٍ -لا لَغوَ بينَهما، كِتابٌ في عِلِّيِّينَ .
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٢٢٧٣ •صحيح •أخرجه أبو داود (١٢٨٨)، وأحمد (٢٢٢٧٣) واللفظ له •

{فالموريات قدحًا}:

- "**القدح**": هو اصطكاك شيء بشيء فيخرج منه الشرارة، لذلك يقول العرب: "قدح فأورى" أي أخرج النار منه أو "قدح فأصلد" أصلد: أي لم تظهر شرارة أو نار وهو يوقدها، فهو إما أن يقدح شيئين فيخرجا شرارة أو لا يُخرجا شرارة، لذلك تسمى "الولاعة" التي نستخدمها "قدّاحة" لأنه يحدث فيها اصطكاك فتخرج شرارة.
- "**موريات**" أي خيل تقدح النَّار باحتكاك حوافرها بالحجارة فيتسبب عنها ظهور شرارة فيخرج منها الضوء، يقول تعالى: {أفرأيتم النار التي تورون} [الواقعة ٧١] أي توقدون، لذلك يقولون "قدح فأورى" أي أخرج النار منه.

هذا الجزء من النار يسمونه نار الحُباحِب لأنها شرارة خفيفة. "**الحُباحب**": كان رجل بخيلاً جدًا يأتي ليلًا، وكان العرب يشتهر بالكرم، يوقد الرجل منهم نارًا عظيمة عند الطبخ ويأتي بالأواني العظيمة –حتى وإن كان سيطبخ كمية قليلة من الطعام– فيرى كل من يمر به النار فيعرف أن هناك طعام، وكأنها دعوة إلى الطعام. فكان الحباحب ينتظر إلى الليل ويوقد نارًا بسيطة جدًا مثل الشرارة حتى لا يأتي أحد ليأكل معه، فأُطلق اسم "**نار الحباحب**" على أي نار أو شرارة صغيرة.

الشاهد، **{فالموريات}**: اسم فاعل أي التي يتسبب عنها ظهور النار، و**{قدحًا}**أي يظهر من أرجل الخيل شرارة بسبب اصطدام أرجلها بالصخر أثناء الانطلاق، وكأن هذا الاصطدام الذي يحدث وهذه العوائق من الحجارة والصخر، وهذه المشاكل من ظهور الشرارة، كل هذه لم تمنع الخيل والفارس من الانطلاق.

هل ظهور الشرارة هنا يدل على أن المشهد ليلي أم نهاري؟

**المشهد ليلي** لأن الشرارة تظهر أكثر وضوحاً في اليل، فإذاً وكأن هذه الخيل ظلت تنطلق طوال الليل وحتى الآية الثالثة {فالمغيرات صبحًا} عندها ظهر النهار، فبدأ المشهد بصوت ثم ظهر بعض الضوء ليبين لنا أن هذا كله يحدث في قمة الليل والظلام.

إذًا هذه الخيل تنطلق لا يمنعها النَّفَس، ولا الظلام، ولا الصخر، ولا الشرارة، فكل هذه العوائق لا تمنع الإنسان من الانطلاق.

## لا بد من وجود عوائق

واعلم أن في مسيرك لنصرة دين الله عز وجل لا بد من وجود عوائق؛ سواء داخلية مثل أخذ النَّفَس، أو خارجية مثل الصخر وما يحدث عند الاحتكاك به من شرارة، هذه عوائق لابد أن تواجه أي إنسان يريد أن ينطلق لنصرة الدين، فمن يتوقف عند أي عائق فلن يكمل مسيرهُ ولن يصل، يقول الله تعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد ١١] فلابد من وجود عقبات، والحل في التعامل معها والاقتحام وليس التوقف، يقول تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ} [النجم٣٣: ٣٤]، "أكدى": أي وجد كُدْية –وهي الصخرة العظيمة– فتراجع ولم يكمل... لا؛ بل لابد من مقاومة هذه الكُدْية، واقتحام العقبات كما فعلت هذه الخيل وهؤلاء الفرسان، انطلقوا مع وجود العوائق يُغيِرون في سبيل الله على الأعداء.

{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} أيضًا الفاء تفيد السرعة، فما أن نصل حتى نستكمل الجهاد في سبيل الله، لا أن نرتاح بضع أيام ولكن نواصل مباشرة.

العجيب إنه طالما هذه الآيات الثلاثة تصور لنا رحلة خروج الخيل للجهاد في سبيل الله فكان من المتوقع أن يأتي المشهد الأول يصور الخيل وهي واقفة ومستعدة، ثم يركب الفارس، ثم يعدو وأثناء الجري يحدث احتكاك حوافر الخيل بالحجارة فتخرج شرارة، ثم آخر الوصول تكون الإغارة في سبيل الله، ثم مشهد الغبار ثم {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، وأخيراً يأتي المشهد الأخير ليبين ما انتهى إليه القتال؛ سواء من النصر أو القتل أو الهزيمة.

فتبدو الخمس آيات وكأنه ينقصها مشهدين؛ مشهد البداية وهو مشهد الاستعداد للقتال، ومشهد النهاية ونتيجة المعركة؛ إما نصر أو قتل أو شهادة. فكلاهما لم يُذكر.

لماذا لم يُذكر مشهد النهاية؟ سنذكر ذلك فيما بعد عندما نشرح الآية الخامسة.

وماذا عن مشهد البداية، لماذا لم يذكر؟

عدم ذكر مشهد البداية يوحي وكأنه لابد للإنسان من أن يكون في هذه الحالة دائمًا من الجري والبذل المستمر، ففكرة نزوله عن الخيل وربطه وجلوسه مرتاحاً في انتظار منادي الحرب غير موجودة عند العامل لدين الله والمجاهد، فتجده يخرج دائماً من غزوة لغزوة، ومن سرية إلى سرية، قال النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم: (من خير معاش النَّاس لهم، رجل آخذ

بعنان فرسه في سبيل الله)[٢] فهو دائمًا ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه –لا يجلس ولا يستقر– لأنه –وكما ذكرنا– فإن:

**الفراغ مُقعِد، فكلما طالت فترات الفراغ على الإنسان كلما زاد الكسل.**

فأنت تَعْلَم المثل العامي المشهور الذي يقول لمن ينام كثيراً "**تقاوي النوم نوم**"، **تقاوي**: أي المغذي، ومعنى المثل أنه كلما نمت أكثر سيجلب ذلك عليك نوماً أكثر، وليس كلما نمت أكثر تستيقظ أكثر! لا، فتجد أنه كلما نمت عشر ساعات ستجد نفسك تريد أن تنام اثني عشرة ساعة، وكلما قللت من ساعات نومك كلما كنت يقظًا.

**كذلك أوقات الفراغ**؛ فكلما طالت الأوقات التي تظن أنها أوقات راحة، والتي تخدع نفسك بظنك أنها تساعدك على العمل بشكل أفضل، فأنت –على العكس– تستمرئ الوضع، وذكرنا هذا في سورة الشرح: أن الذي تطول عليه فترات الراحة يصعب عليه القيام والعودة للعمل مرة أخرى.

إذاً بدأت السورة بمشهد الجري، والجري هو حال المستعد دائماً، وهو أسهل حال لتغيير الاتجاه، وللحركة والانتقال، بينما يصعب على القاعد أخذ القرار بأن يقوم ويلبي النداء، ويركب الخيل ويستعد، إنما الذي يكون على المتن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، يَطِيرُ علَى مَتْنِهِ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً، أوْ فَزْعَةً طارَ عليه، يَبْتَغِي القَتْلَ والْمَوْتَ مَظانَّهُ) لماذا؟ لأنه دائماً مستعد، فالعجيب أن السورة لم تبدأ بمشهد الاستعداد أو مشهد ركوب الخيل وإنما بدأت بمشهد الجري المنطلق، فالسيارة وهي واقفة يصعب أن تحركها، وإنما وهي تسير يسهل أن تغير اتجاهها، وتزيد من سرعتها، وكذلك فإن مشهد الجري مهم جدًا أن يكون موجود دائماً في حياة الإنسان.

والعجيب أن هذه السورة جاءت بعد سورة (الزلزلة) والكلام عن مثقال الذرة من الخير، وكأن الإنسان لابد له من زلزلة تحدث في حياته حتى يصل إلى مرحلة الاستعداد والجري في سبيل الله، زلزلة في الموازين –ذكرنا أن سورة الزلزلة بدأت بالزلزلة وانتهت بالموازين– فلابد من زلزلة تحدث في حياة الإنسان، في قيمه ومبادئه حتى يتعامل ولو بالذرات في نصرة دين الله سبحانه وتعالى.

[٢] [عن أبي هريرة:] مِنْ خَيْرِ مَعاشِ النّاسِ لهمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، يَطِيرُ على مَتْنِهِ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً، أوْ فَزْعَةً طارَ عليه، يَبْتَغِي القَتْلَ والْمَوْتَ مَظانَّهُ، أوْ رَجُلٌ في غُنَيْمَةٍ في رَأْسِ شَعَفَةٍ مِن هذِهِ الشَّعَفِ، أوْ بَطْنِ وادٍ مِن هذِهِ الأوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاةَ، ويُؤْتِي الزَّكاةَ، ويَعْبُدُ رَبَّهُ حتّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، ليسَ مِنَ النّاسِ إلّا في خَيْرٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٨٨٩ • [صحيح] •

إذًا {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}

وكأنهم ظلوا يسيرون طوال الليل إلى أن جاء الصبح، لم يرتاح منهم أحد وإنما دخل مباشرة في الإغارة والقتال في سبيل الله صبحًا، وكان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يُغير في الصباح كما في قوله سبحانه وتعالى وكان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا: {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ} [الصافات ١٧٧]، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي ليلًا وينتظر إلى الصباح، فإذا سمع أذان الفجر يؤذن في المدينة التي سيغير عليها لم يُغر عليهم، وإذا لم يسمع أذان الفجر أغار عليهم، فكان القتال غالبًا ما يكون في الصباح.

{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} إذًا اكتشفنا في الآية الثالثة أن هذا **المشهد الصوتي** كان صوت خيل تجري، وأن هذا **المشهد الضوئي** كان شرارة في الظلام، وكانت هذه خيل يركبها المجاهدون في سبيل الله يقصدون بها الإغارة على أعداء الله عز وجل.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} هنا بدأ المشهد بعد أن جاء الصباح وأنارت الشمس بدأ المشهد مرة أخرى يعلوه نوعًا من الضباب.

**{فَالْمُغِيرَاتِ}**: تعني أنهم وصلوا لمكان العدو.

**[فَأَثَرْنَ}**: أَثَارَ الشيء الراكد أي حرَّكه، وتعود على الخيل التي كانت تعدو.

**{به}**: قيل؛ بمكان الإغارة، وقيل بالعدو.

**{نقعا}**: النقع هو التراب.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} أي أثارت الخيل الغبار في مكان الأعداء، ومعنى هذا أنهم اقتحموا، فلم يأتوا ويقفوا خارجاً وإنما اقتحموا بلاد الأعداء، فما إن وصل المجاهدون في سبيل الله حتى دخلوا إلى قلب المعركة وما بها من كر وفر، فتصاعد الغبار في المكان .

معنى آخر وهو أن قوله: {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} أي أن الخيل أثارت الغبار بسبب العَدْو.

فتكون الهاء إما عائدة على المكان أو على العَدْو، وتختلف على حسب الباء: سواء باء السببية أو باء المكان، فإن كانت باء السببية أي بسبب العدو، وإن كانت باء المكان فتعود على مكان قتال الأعداء.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} فما هي مسألة إثارة التراب هذه؟

هذا مشهد جمالي يصف حرباً تحكيها الآيات، لكن بالطبع إذا كنت تعيش المشهد فسيختلف الأمر كثيراً.

عندما نجد آية في سبيل الله فلابدّ أن ذكر التراب له غرض، فمسألة إثارة التراب تدل على المجهود الذي يبذله المجاهد وتدل أيضًا على استمرار وجود العوائق التي تقابله في سبيل الله.

**فمَن أراد أن يعمل لدين دون أن يصاب بأي شيء فهو واهم، كالذي يريد الجهاد دون أن يتعفر بالتراب.**

لذلك عندما أراد المنافقون الجهاد ماذا قالوا؟ {لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة٨١]

قالوا نحن مستعدون للقتال ولكن في جو مناسب، لا يكون حَرّاً؛ أي أنهم اشترطوا شروطاً للجهاد، {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ} [التوبة ٤٢] هذا ما قاله الله تعالى عنهم، أنهم سيخرجون للقتال معك ولكن وضعوا ثلاثة شروط للقتال في سورة التوبة وهي:

١. أن يكون مكان القتال قريب
٢. أن يكون هناك غنيمة
٣. ألا يكون الجو حرا

كثيرا من الناس قد يقول إن لديه استعداد للعمل من أجل الدين ولكن بشروط؛ يريد أن يأخذ عهداً وميثاقاً بألا يناله أي أذى، ولو ذرة تراب، في حين أنه دائماً ما يأتي تعبير في السنة (اغبرَّت القدم في سبيل الله)[٣]، و(أشعث رأسه، مُغبَرَّة قدماه)[٤].

[٣] [عن معاذ بن جبل:] أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرج بالنَّاسِ قبل غزوةِ تبوكَ فلمَّا أن أصبحَ صلَّى بالنَّاسِ صلاةَ الصُّبحِ ثمَّ إنَّ النَّاسَ ركِبوا فلمَّا أن طلعت الشَّمسُ نعس النَّاسُ على إثرِ الدُّلجةِ ولزِم معاذٌ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتلو أثرَه والنَّاسُ تفرَّقتْ بهم ركائبُهم على جوادِ الطَّريقِ تأكلُ وتسيرُ فبينا معاذٌ على إثرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وناقتُه تأكلُ مرَّةً وتسيرُ أخرَى عثرتْ ناقةُ معاذٍ فخنَّكها =

لماذا تأتي مثل هذه التعبيرات سواء في السنة كتعبير (الأشعث المغبر) أو في القرآن {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}؟

هذا ما يلاقيه المجاهد من مشقة أثناء البذل، وقد قال الراهب للغلام في قصة الأخدود: "**إنك ستُبتلى**"، فمعرفة العوائق التي سيقابلها الإنسان مهم جدًا حتى يتأهب لها ويتخطاها، فكما ذكرنا أن هذه الخيل قابلت كثيرًا من العوائق ولكنها لم تتوقف.

فإذاً من يريد أن يسير في هذه المسيرة لنصرة دين الله عز وجحل هذا واهم ، بل إن عدم وجود عوائق في السير دليل على بُطلان الطريق. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[٥].

فيقول الله عز وجل {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} يصف هنا مشهد التراب المتصاعد مع الكر، والفر، والبذل، والمجهود، وصعود التراب، ثم يقول الله عز وجل:

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} أي أن الخيل توسطت بالمجاهدين جموع الأعداء. (**فَوَسَطْنَ**): أي الخيل توسطت بالمجاهدين جموع الأعداء.

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} ليس فقط كر وفر على الأطراف، وإنما منذ أن ركب الخيل وانطلق ظل يجري ولا يبالي بالصعوبات؛ سواء عند تغيّر مجرى النّفس وظهور الضبح، أو عند حدوث القدح الذي تأتي منه الشرارة، أو عند ظهور الصباح، أو التراب، فهو مستمر إلى أن يصل إلى أقصى نقطة يستطيع الوصول إليها وسط جموع الأعداء وليس على الأطراف.

---

=بالزِّمامِ فهيَّت حتَّى نفرت منها ناقةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كشَف عنه قناعَه فالتفت فإذا ليسَ في الجيشِ أدنَى
المنذري (ت ٦٥٦)، الترغيب والترهيب ٢٥٤/٢ • [فيه] شهر بن حوشب عن معاذ ولا أراه سمع منه

[٤] [عن أبي هريرة:] تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ، طُوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بعِنانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَماهُ، إنْ كانَ في الحِراسَةِ، كانَ في الحِراسَةِ، وإنْ كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨٨٧ • [أورده في صحيحه] وقال : لم يرفعه إسرائيل ومحمد بن جحادة عن أبي حصين وقال تعسا . كأنه يقول فأتعسهم الله . طوبى فعلى من كل شيء طيب ، وهي ياء حولت إلى الواو وهي من يطيب •

[٥] [عن أنس بن مالك:] حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨٢٢ • [صحيح] •

لذلك كانوا يقولون "الذي لا يقاتل إلا على الأطراف" فهذا أحد تفسيرات السلف لقول الله عز وجل {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ} [الحج ١١] قيل: هو الذي لا يقاتل إلا على الأطراف!.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به}[الحج ١١] أي إن أصاب الجيشُ النصرَ والغنيمةَ اطمئن ودخل في الجيش، وإن رآهم ينهزمون رجع! دائماً يقف على الطرف.

وهناك من دخلوا إلى المنتصف وهذا دليل قوة الإيمان، وأنهم موقنون بهذه الصفقة، يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]، أما المنافق فلا يوقن بهذه الصفقة فيقف دائماً على الأطراف.

قال عز وجل {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} أي توسطوا الجمع، فلم يذهبوا لقتال عدة أفراد فقط وإنما توسطوا جمعا كبيرا، ومعنى هذا أيضاً أن الأعداء قد جمعوا لهم حشداً {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥] فهذه ليست مجرد معركة عادية بل انتظرتهم جموع من الأعداء، فاتجه هذا المقاتل المجاهد وتقدم إلى أن وصل إلى المنتصف في أكثر مكان يغيظ فيه الأعداء، حيث اختار أخطر مكان ليقف فيه.

**فماذا حدث بعدما وصل إلى المنتصف؟** انتهت الآيات التي تصف المعركة هنا وبدأت آيات أخرى

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}[العاديات: ٦] قيل هذا جواب القسم، والكلام هنا يتحدث عن واقع مختلف تماماً، عن شخص يجلس في بيته كسول كنود، فهكذا تغير سياق الآيات بعدما كان يمتلئ بالجري والحركة جاء الركون والدعّة، لكن قبل أن نتكلم عن الإنسان الكنود نريد أن نعرف كيف انتهى المشهد السابق؟ وما الذي حدث لهذا المقاتل بعدما توسط جموع الأعداء؟ هل استُشهد؟ هل انتصر؟ **لماذا لم يذكر الله عز وجل لنا ذلك في الآيات؟**

**لأن النتيجة ليست مهمة وإنما المهم أنه استطاع أن يصل إلى هذه النقطة**، أياً كانت النتيجة فهو فائز في كلتا الحالتين، المهم أنه ظل مستمراً في العَدْو حتى وصل إلى هذه المنطقة.

لو استطعت أن تكون دائماً في حال هذه الخمس آيات الأُول، أن تظل في كل حالة من حالاتك تجري بكل ما تستطيع لتنصر دين الله عز وجل أياً كانت النتيجة! انتصرت، أو هُزمت، أو أُسرت، أو قُتلت، أياً كانت النتيجو لايهم! يقول الله

سبحانه وتعالى {وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٧٤]، بدأ الله عز وجل بالقتل أولاً قبل أن يذكر الغلبة؛ ليبين أنه حتى وإن قُتل فليست القضية في النتيجة ، إنما القضية في البذل، وأنه استطاع أن يأخذ القرار ليصل إلى هذه المنطقة {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}.

ثم يقول الله عز وجل كجواب القسم {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} تأكيداً على أن هناك أُناس ليس لهم علاقة بأصحاب العاديات، والجري، والنقع، والبذل، وإنما هو **كنود**.

هناك أثر وإن كان فيه ضعف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بشراركم الذي يأكل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفده)[٦].

قيل إن "**الأرض الكنود**": هي التي مهما تعطيها من ماء لا تخرج لك زرعاً.

وقيل "**الكنود**": الذي يعد المصائب وينسى النعم.

الشاهد أن معاني الكنود كلها تدور حول الجحود، وكفران النعمة، وعدم البذل، على عكس **الأرض الشكور**: وهي الأرض التي تعطيها القليل من الماء فتعطيك زرعاً كثيراً، أما الأرض الكنود فمهما تعطيها لا تنبت شيئاً، وكذلك فهناك أُناس مهما يعطيهم الله عز وجل من نعم لا يعملون للدين ولا يشكرون أي نعمة في حياتهم.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} أي أن هذا الإنسان عنده نِعم، فصاحب العاديات كان عنده خيل فسخرها في سبيل الله، وواجه في الطريق عوائق كثيرة إلا أنه استطاع بفضل من الله عز وجل أن يتغلب عليها، لكن هذا عنده نِعم اكتنزها لنفسه، وامتنع عن شكرها -بخلاف صاحب العاديات- واستسلم للعوائق، وسنرى ما هو أخطر عائق جعله يقعد في بيته، ويتخلف عن الجهاد مع العاديات، ما الذي منع هذا الكنود من الخروج للجهاد في سبيل الله؟

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} جاءت بصيغة التأكيد وتشمل عموم الإنسان، فبعضهم قال أن المقصود هو الكافر، أو الفاجر، أو أن هذه صفة غالبة في الإنسان إلا أن يغالب الإنسان نفسه ويزكيها.

[٦] [عن أبي هريرة:] ألا أنبِّئُكم بشرارِكُم؟ ! الَّذي يأكُلُ وحدَهُ ويجلِدُ عبدَهُ، ويمنعُ رفدَهُ
الألباني (ت ١٤٢٠)، تخريج مشكاة المصابيح ٣٣٠٨ • لم أقف على إسناده

{لِرَبِّهِ} كأن الإنسان كنود مع ربه عز وجل وبخيل معه على وجه الخصوص! أما مع غالب الناس –مع صاحبه مثلاً– يكون رجلاً شهماً ولكن يأتي عند الدين ويجبُن! قد يعطي للناس حقوقهم ويشكرهم ولكن يأتي عند ربنا عز وجل فلا يشكر نعمه! أو أن يكون هذا الإنسان قوي ومجتهد مثل قول الله عز وجل {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}، **شديد**: بمعنى قوي، يبذل من أجل المال ولكن يأتي عند الدين ويبخل بما لديه، تجده شخصاً ذكياً جداً وقوياً وخبيرا، يسعى ويتحرك ولديه خبرة بأمور الدنيا لكن عندما تكلمه في الدين يتعلل بقوله: "أنا لا أعلم شيئاً! ولا أدرى أين أذهب؟"

**إذا كنت لا تدري فلماذا لم تسأل؟ لماذا لا تتحرك في الدين مثلما تتحرك في الدنيا؟** يتعلل بقوله: "لا أدري، ولم يخبرني أحد، الطريق صعب، والناس مختلفة، ولا أعرف من أتبع؟! "

عجبا! ألم تجاهد في الدنيا لكي تصل لمكانك هذا!

{إِنَّ الْإِنسَانَ **لِرَبِّهِ**} تحديداً، وكلمة {لِرَبِّهِ} أي الذي رباه بنعمه، فهل هذا هو شكر النعم؟!

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ} لم تأت الآية بلفظ الرب وإنما {لِرَبِّهِ} هو ؛ليذكره بنعم الله عليه **هو** تحديداً.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ} لا يشكر نعمه، أناني، جَحود، يتنعم بنعم الله ولا يبذلها في نصرة دينه عز وجل.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ} وقلنا الكنود تعنى الجحود والأنانية والطمع والبخل.

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [النساء: ٧]

{وَإِنَّهُ} غالب المفسرين: إن الهاء تعود على هذا الإنسان الكنود ، أي أن الإنسان شهيد على نفسه في الدنيا والآخرة، فكيف يشهد على نفسه في الآخرة؟ ستنطق جوارحه، يأتي فيقول: "والله لم أكن أعلم" فتشهد عليه جوارحه وتقول: "قد كنت تعلم" يقول: "والله ما كنت أقدر" كما أخبرنا الله عز وجل {لو نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ}[ال عمران: ١٦٧]

، فترد عليه جوارحه: "بل كنت تقدر"، ستشهد عليه الجوارح لأنه يكذب، يتعلل بأنه لم يكن يعلم أو يقدر فترد عليه وتدحض دعواه قائلة: "بل كنت تعرف وتقدر".

أما في الدنيا {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} فيعاتب الإنسان نفسه، لكنه سريعاً ما يحاول الهروب من هذا العتاب النفسي. كثير منا تلومه نفسه عندما يخطئ، وقد يصحو ضميره عندها ولكنّ ثمة أُناس بمجرد أن يصحو ضميرهم يقتلوه! ويُسكتوا صوت الواعظ الذي جعله الله في قلب كل مسلم، يريدون أن يقتلوا النفس اللوامة.

{لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ١-٢]، توضّح الآيات أن شدة الإيمان بيوم القيامة يزيد من لوم النفس اللوامة، وشدة إنكار يوم القيامة يقتل النفس اللوامة، لذلك قال ربنا عز وجل أن أكثر الناس حرصاً على قتل النفس اللوامة هو الفاجر، قال عز وجل {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ} [القيامة: ٥]، فالفجور معناه أن شيئاً تفجَّر فلا يريد أن يلومه أحد ولا حتى نفسه التي بين جنبيه. فهو يعلم أن هذه النعم من الله عز وجل، ويعلم أن عليه واجباً تجاهها، ويشهد على نفسه بذلك.

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} من معانيها أيضاً أن الناس سيشهدون على بعضهم البعض...بعض المفسرين قالوا معنى جميل جداً في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يُبْصِرُ أحدُكم القذَاة في عينِ أخيهِ ويَنْسَى الجِذْعَ في عينِ نفسه)[٧] فهذا من ينتقد أحداً، تجده يلمح القذاة الصغيرة جداً، فما دمت تُحسن النقد هكذا فلماذا لا تنتقد نفسك!! تجده ينتقد الآخرين لتقصيرهم في الطاعات وعندما تسأله عن تقصيره يتعلل بالظروف، ويلقى اللوم على الآخرين، ولا يلوم نفسه أبداً، فقالوا هذا من معاني قوله: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}.

وهناك معني آخر؛ وهو أن الله عز وجل شهيد عليه في لحظة الكنود، فكأن السورة ذكرت خمس آيات لإنسان منطلق مجاهد ثم ذكرت لنا الصورة المعاكسة؛ البخيل الذي يجمع المال، والجحود الذي لا يشكر أي نعمة.

أنعم الله عز وجل عليك بنعمة الكلام فلماذا لا تتكلم لنصرة دين الله؟

أعطاك أموالاً فلماذا لا تستخدمها في نصرة دينه؟

أعطاك آلات، وأدوات، وسيارات، واختراعات، وغيرها لتستخدمها لنصرة دينه،

أعطاك عقل تفكر به لنصرة دين الله...لا

تجده بخيل بكل الأدوات التي أعطاها لك الله عز وجل **كنود**.

[٧] عن أبي هريرةَ قالَ: يبصرُ أحدُكمُ القذاةَ في عينِ أخيهِ وينسى الجذلَ - أوِ الجذعَ- في عينِ نفسِهِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الأدب المفرد ٤٦٠ • صحيح موقوف •

يذكر الله عز وجل السبب في أنه كنود: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[العاديات: ٨]، فأكبر مانع هو المانع النفسي وليس الخارجي، فعندما تتخلص من الموانع النفسية غالباً –وليس دائماً– لا تقف أمامك العوائق الخارجية.

## البخل بالذات و باللذات

أخطر مانع هو "**البخل بالذات و باللذات**": أي البخل بنفسك وبلذاتك، هذا هو أخطر الموانع التي تمنعك من الانطلاق، لذلك يقول الله عز وجل {وَالْعَادِيَاتِ} أي الخيل المنطلقة، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو: (أعوذ بك من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل)[٨] كلها موانع نفسية، أما آخر شيء استعاذ منه النبي كان (غلبة الدين وقهر الرجال)، أن يُدان أو يُقهر، لكن الستة الأوائل كلها موانع نفسية.

لذلك آخر الجزء الثاني من سورة البقرة عندما ذكر الله عز وجل شرائع الهدي وقد ذكر في الجزء الأول أسباب الضلال التي ضل بها بنو إسرائيل، ثم ذكر قصة طالوت وجالوت وكان متوقعاً أن تُذكر من ضمن القصص، فهناك قصة سيدنا آدم، وقصة بني إسرائيل، وقصة سيدنا إبراهيم وبناء الكعبة، ولكن تلك القصة بالتحديد ذُكرت في النهاية!

أهم اسباب موت الأمم تجده في الربع الأخير من الجزء الثاني... قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} [البقرة: ٢٤٣]، هذا هو تشخيص كل أمة منهزمة، وبعدها{ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا..... والله يقبض ويبسط} مسألة الخوف علي النفس والمال، لذلك قبل قصة طالوت وجالوت ذكرت الآيات تؤكد على أن هاتين أهم عقيدتين لابد من إصلاحهما في أي أمة منهزمة، ولا يستبد مُستبد على المستضعفين إلا باستغلاله لتلك المشاعر؛ **الخوف علي النفس والمال**، ولا تنهض أمة إلا بكسر هذه المشاعر، فالثورات لا تحدث إلا بسقوط الهيبة–الخوف على النفس والمال–، ولا تُقهر الثورات إلا بإعادة الهيبة، وهذه الهيبة –أي الخوف– إنما هي في النفوس.

لذلك ذكر ربنا عز وجل أهم أسباب هزيمة الأمم **{حَذَرَ الْمَوْتِ}**.

[٨] [عن أنس بن مالك:] كان رسولُ اللهِ كثيرًا ما يدعو بهذه الكلماتِ اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن الهمِّ والحزَنِ والبُخلِ والجُبنِ والعَجْزِ والكَسَلِ ومِن ضَلَعِ الدَّيْنِ ومِن غلَبةِ الرِّجالِ
الطبراني (ت ٣٦٠)، المعجم الأوسط ٤٧/١ • لم يرو هذ الحديث عن عمارة بن غزية إلا ابن لهيعة

وانظر لهذا التعبير النبوي المعجز الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر أسباب هزيمة الأمة الإسلامية رغم أن عددها كبير فقال: (وليقذفن الله في قلوبكم **الوهن**)[٩]، قيل (وما الوهن يا رسول الله؟) قال: (**حب الدنيا وكراهية الموت**) وفي قوله: {وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ}، ألوف: جمع كثرة، فهم كثيير... ألوف ولكنهم خائفون.

كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)[١٠] فقال قائل: (أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟) قال صلى الله عليه وسلم: (لا، بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)، المشكلة في الوهن، فحب الخير الشديد هذا كالأغلال تمنع صاحبها من البذل في سبيل الله.

يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ **اثَّاقَلْتُمْ** إِلَى الْأَرْضِ الله } [التوبة: ٣٨]، تُصور الآية مشهد إنسان يحاول أن ينهض لكنّ أغلالاً ثقيلة تشده إلى الأرض، كالذي يحاول أن يقوم لصلاة القيام، أو الفجر وتشده أغلال البطانية والدفء من تحتها، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث عقد)[١١] فلكي تنهض لابد من أن تكسر عقداً كثيرة وعوائق؛ أخطرها عائق النفس كما ذكرنا، فإذا قام انحلت عقده كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة)، هناك من يفك أول عقدة ثم ينام... لابد أن تكمل وتفك جميع العقد، مثلما قلنا "العاديات... فالموريات...فالمغيرات"، فلابد أن تحل كل العقد.

---

[٩] [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم:] يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول اللهِ ! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت
أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٤٢٩٧ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح]

[١٠] [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم:] يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول اللهِ ! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت
أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٤٢٩٧ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح]

[١١] [عن أبي هريرة:] يعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ، يضربُ على كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإنِ استيقظَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدةٌ، فإن توضأَ انحلَّتْ عُقدةٌ، فإن صلّى انحلَّتْ عُقدةٌ فيُصبحُ نشيطًا طيّبَ النفسِ قد أصاب خيرًا، وإن لم يفعل أصبح كسلانَ خبيثَ النفسِ، لم يُصِبْ خيرًا
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ٦٤٧ • صحيح • أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦)، وأبو داود (١٣٠٦) مختصراً، وابن ماجه (١٣٢٩)، وأحمد (٧٤٤١) باختلاف يسير. •

(فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقَدُه كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) فهناك من يقوم ويذكر الله عز وجل ثم ينام مرة أخرى، وهناك من يقوم فيتوضأ ثم يرجع إلى سريره معتقداً أنه سيغفو قليلاً ثم يقوم، أو متعللاً أنه مازال هناك وقت كافي قبل صلاة الفجر، فينام ولا يستيقظ إلا وقت الظهر!

لكي تنهض لابد أن تستمر في حل كل العقد، وكسر كل العوائق، واقتحام كل العقبات. إذاً فالقضية كلها في مسالة حبه **الشديد** للخير، يسيطر عليه، و(**الخير**): أي المال الكثير، لذلك قالوا من يوصي لابد من أن يكون عنده مال كثير كما جاء تعبير القرآن {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ} [البقرة: ١٨٠]، أي المال الكثير.

طبعاً مسألة الخير فيها كلام كثير وقال العلماء أن **شديد**: بمعنى بخيل، فكيف تأتى شديد بمعنى بخيل؟ قالوا شديد على وزن فَعيل ويمكن أن تأتي بمعنى مفعول.

مثلاً: جريح معناها مجروح، رَحيم معناها مرحوم وهكذا ...**فقالوا: شديد معناها مشدود كأن هناك أغلالاً تشده**، فالبخيل –كما جاء في الوصف النبوي في الحديث– (كأن البخيل عليه جُبة من حديد)[١٢]، أي كأنه يرتدى قميصاً من حديد، إذا أراد أن يُخرج يده لينفق لا يستطيع، وكأنه مقيد بالحديد –وكنا قد ذكرنا شرح هذا الحديث بالتفصيل، وشرحنا أيضاً محاولة تغيير أخلاق الإنسان في سورة الحجرات لمن أراد العودة إليها.

الشاهد أن معنى {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} أنه مقيد أو مشدود أو ربما هو من يشد على نفسه؛ فقيل أيضاً **شديد**: أي يشد كل سُرة يدخر فيها النقود ويربطها، {الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ} [الهمزة: ٢]، فشغله الشاغل عد الأموال، فعندما تسيطر هذه المشاعر على الإنسان لا يستطيع الخروج، أو البذل أبداً، لذلك كانت أخطر الموانع هي الموانع النفسية...فلا تُهزم الأمم إلا بالموانع النفسية، ولا تفيق إلا بكسرها، فلا بد من إصلاح عقيدتين مهمتين لأي أمة –وقد بدأ بهما الربع الأخير في الجزء الثاني من سورة البقرة في قوله عز وجل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ}.

[١٢] [عن أبي هريرة:] مَثَلُ البَخِيلِ والمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ، عليهما جُبَّتانِ مِن حَدِيدٍ. وحَدَّثَنا أبو اليَمانِ، أخْبَرَنا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنا أبو الزِّنادِ، أنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ: أنَّه سَمِعَ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عليهما جُبَّتانِ مِن حَدِيدٍ مِن ثُدِيِّهِما
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٤٤٣ • [صحيح] [قوله: تابعه الحسن بن مسلم ... معلق وصله في موضع آخر] [قوله: وقال حنظلة ... وقال الليث ... معلق] • أخرجه البخاري (١٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٢١) •

فالعقيدة هي أن الله هو الذي يحي ويميت، ويقبض ويبسط، إذا تمكّنت هذه العقائد من أي أمة مسلمة نهضت، وثارت، وقامت، لذلك فمن العجيب أنك تجد أن الربع يبدأ بمشهد أُناس خائفون من الموت، أما بداية الإصلاح فحصلت بأُناس تجري إلى الموت {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٤٦].

هناك أمة تفر من القتال وأخرى تجري إليه، فبداية الإصلاح والنهوض تكون بكسر تلك الحواجز النفسية.

إذًا ذكر الله هذين النموذجين المتضادين في السورة كما ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم في حديث واحد أيضاً، لكن السورة بدأت بالنموذج المنطلق ثم ختمت بالنموذج القاعد أما الرسول صلى الله عليه وسلم فبدأ بالنموذج القاعد فقال صلى الله عليه وسلم: (تعِس عبدُ الدينارِ ،تعِس عبدُ الدرهمِ ،تعس عبدُ الخميصةِ ،تعس عبدُ الخميلةِ ،تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ)[١٣] ثم يتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن مثال معاكس تماماً في نفس الحديث فيقول: (طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)[١٤]

نموذجان متضادان، نموذج الأسير الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم **العبد**، ونموذج الحر المنطلق في سبيل الله فهو آخذ بالعنان –أي أنه قد ركب الفرس وانطلق بالفعل– لا يأبه بتغير في شكله، ولا ملابسه، أما الآخر فأي تغير في دينارِه، ودرهمه، وملابسه، وشكله يغضبه! (وإذا شيكَ فلا انتقشَ) أي إذا أصيب بشوكة لا تخرج منه –قيل هذا دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم عليه، وقيل إنه وصف لحاله– فالمشكلة الصغيرة تجعله ينتكس ويقعد، والشوكة الواحدة تؤثر فيه، أما الثاني فلا يعوقه عائق، ولا تحدَّه حدود، فهو منطلقٌ حر (آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ).

[١٣] [عن [أبو هريرة]: تعِس عبدُ الدينارِ، تعِس عبدُ الدرهمِ، تعس عبدُ الخميصةِ، تعس عبدُ الخميلةِ، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، مجموع الفتاوى ٣٥/٢٨ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧) باختلاف يسير •

[١٤] [عن أبي هريرة:] تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإِذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ، طُوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَماهُ، إِنْ كانَ في الحِراسَةِ، كانَ في الحِراسَةِ، وإِنْ كانَ في السّاقَةِ كانَ في السّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨٨٧ • [أورده في صحيحه] وقال : لم يرفعه إسرائيل ومحمد بن جحادة عن أبي حصين وقال تعسا . كأنه يقول فأتعسهم الله . طوبى فعلى من كل شيء طيب ، وهي ياء حولت إلى الواو وهي من يطيب •

لذلك لما قلنا {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} أي توسط الأعداء أيًا كانت النتيجة، أو المكان الذي سيذهب إليه، (إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ) أي إن وُكّل إليه أُمر الحراسة؛ كان بكله في الحراسة، وإن كان في الساقة فكله في الساقة.

(إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) هو أيضاً لا يملك من الوجاهة الدنيوية، حتى منصبه الديني الرفيع عند الله عز وجل لا يعتبر به الناس، فهو مجهول عندهم، معروف عند الله وملائكته، يحبه الله عز وجل وتحبه الملائكة، وكم من مجاهدٍ لا يعلمه الناس ويعلمه الله عز وجل، وكم من صادق لا يعلمه الناس والله عز وجل يعلمه، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **"لا يضُرُّهم ألَّا يعرِفَهم عمرُ لكنَّ اللهَ يعرِفُهم"** فالله عز وجل يعلمهم سبحانه وتعالى.

## نموذج المنطلق ونموذج الكنود

إذاً فهذه السورة تتكلم عن نموذجين من الناس:

١. **نموذج المنطلق**، الذي بدأ بالحركة سريعاً ولم يتعلل بأنه مازال في مرحلة الاستعداد، فهو نموذج يريد أن ينصر دين الله عز وجل.
٢. **ثم نموذج الكنود الجحود البخيل الأناني**، الذي لا يبذل أي نعمة لنصرة دين الله عز وجل، وأخطر ما ذُكر هنا المانع النفسي، وسيطرة حب المال عليه، لذلك فإن حب المال الكثير، وحب الدنيا، كالسرطان يكبر داخل الإنسان حتى يسيطر على كل مشاعره، فيجعله لا يستطيع التفكير في أي شيء، ولا يحسب أي حسابات إلا من خلالها، وهذا معنى ضخم جدًا، لذلك طول المكث في وسط الدنيا ينمي هذا السرطان، فكان لابد أن تخرج منها كل فترة.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِهِ؛ **مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**)[١٥]. فهذا إنسان رضخ تمامًا لأنه استسلم للواقع، فلا يبذل بنفسه ولا حتى يفكر في كيفية تغيير هذه الأوضاع، فصار كل ما يحدث من حوله أمر طبيعي جداً بالنسبة إليه.

فهناك بيئات رطبة منتنة ينبت فيها الفطريات الضارة، فالنفاق ينبت في هذه الأوساط، أوساط الدنيا المستمرة دائمًا، وهذه هي أخطر الأوساط التي ينبت فيها النفاق.

[١٥] [عن أبي هريرة:] مَن ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّثْ به نَفْسَهُ، ماتَ على شُعْبَةٍ مِن نِفاقٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٩١٠ • [صحيح] •

إذاً ذكرت السورة صنفين من الناس، المقدِم الذي لا تعوقه العوائق ولا تحده الحدود، والكنود الذي يبخل ولو بنعمة واحدة من نعم الله عز وجل، ولا يشكر الله عز وجل، ولا يبذل أي شيء لنصرة دين الله عز وجل.

هناك مسألة فرعية نود التنبيه عليها، وهي مسألة أن كثير من الناس –وخاصة المتأخرين– ينكرون **جهاد الطلب**: ومعناه الذهاب إلى الأعداء لنشر دين الله عز وجل، وضرورة البذل والتحرك.

هنا السورة نفسها تتحرك {وَالْعَادِيَاتِ} أي لا بد من الحركة لنشر دين الله عز وجل وجهاد من صدوا عن سبيل الله سبحانه وتعالى.

أيضاً قلنا أنّ المدح هنا في السورة لم يكن للخيل لمجرد أنها خيل، ولكن لأنها تجاهد في سبيل الله.

هناك حديث جميل جداً للنبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين يبين لنا أنه بحسب معاملتك مع الدنيا يكون نصيبك من الثواب أو العقاب، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الخيل ثلاثة: لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر)[١٦] أي أن الخيل ثلاثة أنواع، فهي لرجل أجر، ولرجل آخر ستر، ولرجل ثالث وزر.

**فمن الذي تكون الخيل بالنسبة له أجر؟**

١. (فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فالرجل يتخذها في سبيل الله ويعدها فلا تُغيب شيئا في بطونها إلا كتب له أجر ولو رعاها في مرج، ولو سقاها من نهر جار كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجر)، أي أن الرجل ربطها في سبيل الله، فلا تأكل أي طعام إلا وكتب الله له أجراً بها، طالما أنه تركها في سبيل الله، مثل السيارة التي تستعملها في سبيل الله، فلا تُغَيِّب هذه السيارة من وقود أو غيره إلا ولك فيها أجر.
حتى لو تركها ترعى في المرعى ولم يَضع لها الطعام بنفسه.

[١٦] [عن أبي هريرة:] الخيلُ في نواصيها الخيرُ، أو قالَ: الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ، قالَ سُهيلٌ: أنا أشُكُّ الخيرُ، إلى يومِ القيامةِ. الخيلُ ثلاثةٌ: فَهيَ لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجلٍ وزرٌ. فأمّا الَّذي هيَ لَهُ أجرٌ فالرَّجلُ يتَّخذُها في سبيلِ اللهِ، ويعدُّها لَهُ، فلا تغيّبُ شيئًا في بطونِها إلاَّ كتبَ لَهُ أجرٌ، ولو رعاها في مرجٍ، ما أكلت شيئًا إلاَّ كتبَ لَهُ بِها أجرٌ، ولو سقاها من نَهرٍ جارٍ كانَ لَهُ بِكلِّ قطرةٍ تغيّبُها في بطونِها أجرٌ، حتّى ذكرَ الأجرَ في أبوالِها وأرواثِها، ولوِ استنَّت شرفًا أو شرفينِ، كتبَ لَهُ بِكلِّ خطوةٍ تخطوها أجرٌ. وأمّا الَّذي هيَ لَهُ سترٌ، فالرَّجلُ يتَّخذُها تكرُّمًا وتجمُّلاً ولا ينسى حقَّ ظُهورِها وبطونِها في عسرِها ويسرِها. وأمّا الَّذي هيَ عليْهِ وزرٌ، فالَّذي يتَّخذُها أشرًا وبطرًا وبذخًا ورياءَ النّاسِ، فذلِكَ الَّذي هيَ عليْهِ وزرٌ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٢٢٦٥ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٣٧١ )، ومسلم (٩٨٧) بنحوه •

بل يقول الراوي: (حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها) تخيل؟ حتى ما يخرج من بطونها عليه أجر!

(ولو استنت شرفاً أو شرفين) أي لو صعدت إلى مكان كُتب له بكل خطوة تخطوها أجر.

يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم عن تفاصيل دقيقة، كان من الممكن أن يعمم ويقول أنّ كل ما تفعله له به أجر، لكنه تكلم بدقة عن تفاصيل حياة الخيل التي كانت في سبيل الله، فلن تُظلم نقيراً ولا قطميراً.

وتجد تلك الدقة أيضاً في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[١٧] فحتى الرائحة! حتى ذرات الغبار المتناثرة في سبيل الله، الدمعة لا ينساها الله لك أبدًا وتُكتب لك وتُرفع بها عند الله سبحانه وتعالى، فأنت تُعامل معاملة في غاية الدقة.

٢. ثم يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وأما الذي هي له ستر، فالرجل يتخذها تكرماً وتحملاً ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها) أي يتخذها لإشباع احتياجاته العادية، وأحياناً يؤدي حقها بشكر نعمة ربه سبحانه وتعالى ودفع الزكاة إذا وجبت عليها زكاة، أو يستخدمها في مساعدة الناس، كأن يرفع أحد عليها أو غير ذلك.

٣. وأخيراً النوع الثالث (وأما الذي عليه وزر، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورئاء الناس، فذاك الذي هي عليه وزر).

**إذًا الاستعمال في الدنيا مبني على ثلاثة أشياء:**

١. إما أن تهتم ببناء الدنيا لغاية أساسية وهي نصرة الإسلام،
٢. أو مجرد إشباع احتياجاتك الإنسانية،
٣. وأما من يريد أن يفتخر على الناس ويتكبر على الناس فهي عليه وزر.

فمثلاً: تريد أن تصبح طبيباً فهل هذا حراماً؟ لا... ليس حراما، بل إنه مباح، لكن لكي تنال الأجر لابد من نية تصاحبه، مثل الرغبة في خدمة الناس وهذه النية لا بد أن تكون صادقة، يُصدّقها العمل وليست مجرد نية فحسب.

---

[١٧] [عن عبدالرحمن بن غنم:] سألتُ معاذ بن جبل: أتسَوَّك وأنا صائِمٌ؟ فقال: نعم، قلتُ: أيَّ النَّهارِ أتسَوَّك؟ قال: أيَّ النَّهارِ شئتَ، إن شئتَ غُدوةً، وإن شئتَ عَشيَّةً، قلتُ: فإنَّ الناس يكرهونَه عَشيَّةً! قال: ولِمَ؟ قلتُ: يقولون إنَّ رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لَخُلُوفُ فَمِ الصّائمِ أطيَبُ عند الله [مِن ريحِ المِسكِ] قال: سبحانَ اللهِ، لقد أمَرَهم بالسواكِ حين أمَرَهم وهو يعلَمُ أنَّه لا بد أن يكون بفَمِ الصّائمِ خُلوفٌ وإن استاك، وما كان بالذي يأمُرُهم أن يُنتِنوا أفواهَهم عمدًا، ما كان في ذلك من الخيرِ شَيءٌ، بل هو شَرٌّ إلّا من ابتُلِيَ ببلاءٍ لا يجِدُ منه بدًّا، قلتُ: والغبارُ في سبيلِ اللهِ أيضًا كذلك؛ إنما يؤجَرُ من اضطرَّ إليه ولا يجِدُ عنه محيصًا؟ قال: نعم، فأمّا من ألقى نفسَه في البلاءِ عمدًا فما له في ذلك من أجرٍ

الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ١٦٨/٣ • فيه بكر بن خنيس وهو ضعيف • أخرجه الطبراني (٧١/٢٠) (١٣٣)

**إذن إما أن تكون لرجل أجر، أو ستر، أو وزر والعياذ بالله.**

نعود مرة أخرى لسورة العاديات، قلنا أنهما صنفان من الناس، فقال الله عز وجل بعد ذلك، بعدما أخبرنا أن المانع الرئيسي من الانطلاق والعائق الأكبر هو حب الخير الشديد.

سبحان الله سورة العاديات جاءت بين سورتين؛ سورة **الزلزلة** وسورة **القارعة**، وفي السورتين بيان بحقارة الدنيا وأنه لابد من زلزلة، فحب الدنيا يحتاج إلى زلزلة وقرع حتى يخرج من القلوب فجاءت العاديات بعد الزلزلة وقبل القارعة.

مثلما تكلمنا عن الخسران المبين للإنسان في سورة **العصر**، وقد جاءت بين سورتي **التكاثر والهمزة**، وأن هؤلاء هم من أكثر الفئات الخاسرة، ففي سورة التكاثر انشغل بالناس مكاثراً؛ وفي سورة الهمزة انشغل بالناس مستهزأً فأصبح من الخاسرين: يقول الله عز وجل في سورة العصر: {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[العصر: ٢]. جاءت سورة العاديات بين سورتين، ولن يخرج حب المال إلا بالزلزلة وبالقارعة فجاء في آخر السورة ما يجعل هذا الكنود يهتز ويَفيق {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}[العاديات: ٩] تخيل مشهد الآخرة؛ أرض كلها صحراء وتراب، والبشر كلهم مدفونين بها، ومشهد البعثرة، البعثرة تعني شيء غير مرتب، مهمل ومتبعثر، والآية ليست "أفلا يعلم إذا بعثر **من** في القبور" وإنما **مَا** كأنه نكرة، غير عاقل، بعض المفسرين قال لأنه في هذه الحالة يكون ميتاً فهو غير عاقل وقتها.

الشاهد أن الحياة الضخمة التي أبَيتَ أن تضحّي في سبيل الله من أجل حبك لها أصبحت مجرد شيء نكرة ملقى على الأرض، هذه هي الحياة التي قعدت وتخلفت عن خدمة الدين من أجلها!

{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} فمآل الحياة إلى القبور، مهما اتسعت دنيا الإنسان فنهايته في وعاء، فالقبر هو مجرد وعاء!

## نهاية سعي الإنسان

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}[العاديات: ١٠] **المحصول**: هو الحبوب التي تخرج من القشرة بعد معالجتها بطريقة معينة...فسوف يُنزع ما في صدر الإنسان ليُكشف، فكأن في هذا تخويف حتى للمجاهد علامَ تجاهد؟ أفي سبيل الله؟ أم حمية وعصبية؟

سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل: (يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية ويقاتل رياء. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله)[١٨] إذاً فالنية شرط، حتى ذلك الذي يتحرك فهو مسئول عن نيته، ونعوذ بالله فإن أول ثلاثة تسعر بهم النار منهم مجاهد؛ ومنفق، وقارئ، كما جاء في السنة، إذاً فالحساب على النيات، دقة حتى في النيات!

{إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ}[العاديات: ١١] أي أن ربهم يومئذ خبير بما عملوا وقدَّموا في الحياة الدنيا.

اسم الله عز وجل **الخبير** هنا يفيد أنه ليس فقط عليم يحيط بما عملوا بل أيضاً خبير بالنوايا، لذلك قال بعضهم:

- أن اسم الخبير أحياناً يأتي للخفايا والنوايا، وما خفي من الأمور،
- ويأتي مع الحكيم لأن الحكمة تحتاج إلى معرفة ما وراءها، وفي الدنيا فلا يسمى الإنسان خبيراً إلا عندما يُجرب ويعرف خفايا الأمور فعندئذ يسمى خبيراً، ولله المثل الأعلى.

{إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ} أي خبير بنواياهم وتحركاتهم، وبكل ذرة تراب تعلقت بقدم مجاهد، وبكل نعمة أعرض عنها الكنود، الله عز وجل خبير بكل ذلك سبحانه وتعالى، فسوف يسألهم عن كل ذلك ويحاسبهم عليه، فيجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

إذاً نموذجين متضادين ذُكروا في السورة، وذُكروا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ العبد الحر الأشعث رأسه المغبرة قدماه، والثاني عبد الدرهم والدينار والأموال **والخميصة والخميلة**؛ قيل: معناها الطعام والملبس، وقيل: الأثاث، ومن معانيها أيضاً أن يكون الإنسان أسير للتقاليد، والعادات، خائف من العمل لدين الله عز وجل لئلا يخسر هذه الأشياء، وهناك عبد تحرر وكسر كل هذه القيود، كما قالت امرأة عمران {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي **مُحَرَّرًا** فَتَقَبَّلْ مِنِّي} [آل عمران :٣٥]، **محررًا** من كل قيد.

إذاً فالحرية الحقيقية التي يجب أن يطالب بها الإنسان هي التحرر من كل القيود المانعة من عبودية الله سبحانه وتعالى، فكلما كان الإنسان عبدًا لله كلما كان أكثر حرية من القيود، وكلما ابتعد عن عبودية الله كلما سقط في قيود أخرى، فيكون عبداً

[١٨] [عن أبي موسى الأشعري:] سُئِلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، أَيُّ ذلكَ في سَبيلِ اللهِ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: مَن قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيا، فَهو في سَبيلِ اللَّهِ. وفي رواية: أَتَيْنا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُقاتِلُ مِنّا شَجاعَةً فَذَكَرَ مِثْلَهُ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٩٠٤ • [صحيح] •

لهواه، وللشيطان، أو عبداً لمستبِد، يكون عبداً للآخرين لأن الإنسان فُطِر على حاجة للعبودية والطاعة، فإما أن يطيع الله عز وجل وإما أن يطيع هواه، أو يطيع الآخرين.

نسأل الله عزوجل أن نتحرر من هذه القيود وأن نكون من العاملين المجاهدين الذين ينصرون دين الله عز وجل.

نسأل الله عز وجل أن يستعملنا ولا يستبدلنا ...

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا ...

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا ...

اللهم اهدنا واهدِ بنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى ...

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ...

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.